فوضى.. نعم ولكن من يتحكم بها؟

الكاتب : ياسر الزعاترة

التاريخ : 14 أكتوبر 2014 م

المشاهدات : 4872

يحلو للبعض في سياق من الحديث عما يجري في المنطقة أن يستعيد مصطلح "الفوضى الخلاقة" الذي يُنسب لكوندوليزا رايس، وزيرة الخارجية الأميركية أيام جورج بوش الابن، ويبدو أن على هؤلاء أن يتذكروا أن أميركا حتى مطلع الألفية الجديدة، وربما حتى منتصف العقد الأول من القرن الجديد، لم تعد هي ذاتها هذه الأيام.

ففي حين كان يمكن حتى ذلك الحين الحديث عن أحادية قطبية، فإن الأمر يبدو مختلفاً هذه الأيام لجهة المشهد الدولي الأقرب إلى التعددية القطبية، بوجود قوى ذات حضور كبير مثل الصين وروسيا والهند والبرازيل، فضلاً عن أوروبا، وإن تفاوت تورط كل منها في الشأن السياسي المباشر لمنطقتنا تحديداً، تبعاً لحسابات خاصة لكل منها.

الأهم من ذلك أن على من يرددون مصطلح الفوضى الخلاقة أن يتذكروا أنه ما من مشروع صاغته أميركا (ومعها الكيان الصهيوني الأكثر تأثيراً في سياستها الخارجية الشرق أوسطية) منذ مطلع التسعينيات وانتهى إلى النجاح، من مشروع أوسلو وحتى مشروع غزو العراق لإعادة تشكيل المنطقة، فضلاً عن جملة المشاريع الرامية إلى إنجاز حل للمسألة الفلسطينية.

من يتحكم بالكون لا يحتاج لبث الفوضى، فهو يدير المشهد كما يشاء، والفوضى هي مسار يمكن أن يختطه من لا يملك القدرة على التحكم بالمشهد من الأساس، ورغم ذلك، فإن بث الفوضى ومن ثم التحكم بمخرجاتها يحتاج إلى قوة قادرة، الأمر الذي لا ينطبق على أميركا هذه الأيام.

الذي لا شك فيه أن الربيع العربي قد فاجأ الولايات المتحدة، تماما كما فاجأتها من قبل المقاومة العراقية، هي التي كانت تعتقد أنها ستتحكم بالعراق، وتديره في ظل انتداب عسكري، وتنتقل بعده إلى إيران وسوريا وكل الوضع العربي لتعيد تشكيله

سياسياً وثقافياً، وربما جغرافياً أيضاً، وبالطبع على إيقاع المطالب الصهيونية.

وحتى عمليات الإجهاض التي تعرض لها الربيع في محطته الأهم (مصر) لم تكن بإدارة عملية من قبل الولايات المتحدة، بل كانت في شقها الأهم من فعل وتخطيط الدولة العميقة في مصر، وبدعم رهيب من محاور مهمة وذات قدرات مالية في النظام العربي الرسمي.

صحيح أن ذلك كان برضاها ودعمها العملي (أعني الولايات المتحدة)، لكنه لم يكن ليتم لولا المعطيات الموضوعية العربية التي كان أهمها تشكل محور أنظمة الثورة المضادة.

ولا حاجة هنا إلى القول إن مفاجأة الثورة السورية كانت أكبر من سواها، وإن جرى التحكم بها بشكل أكبر، ليس من خلال الذكاء الأميركي، بل لأن إيران أصرت على الوقوف إلى جانب بشار، فتوافق ذلك مع الإستراتيجية الصهيونية الرامية إلى إطالة أمد الحرب لتدمير البلد واستنزاف جميع الخصوم، بمن فيهم إيران وتركيا وحزب الله والربيع العربي.

أما العنف الذي اجتاح سوريا وأفضى إلى منح دفعة قوية جداً لتيار السلفية الجهادية، ومن ثم تصدره من قبل تنظيم الدولة، فلم يكن من تخطيط أميركا، ولا صلة لها به البتة، وهي ربما فوجئت به أيضاً، رغم إدراكها لاحقاً لحقيقة أن الأمر كان من تخطيط النظام لكي يتفوق أمنياً وعسكرياً على الثورة، ومن أجل أن يتمكن من وصم للثورة بالإرهاب، رغم أن المشهد التالي قد فاجأه أيضاً.

وفي حين لم تكن أميركا تريد في العراق مشهداً إقصائيا يعيد العرب السنّة إلى حمل السلاح ومساعدة تنظيم الدولة على استعادة قوته، فإنها لم تتحكم بالوضع على نحو يتيح لها ذلك، إذ وقع البلد أسير النفوذ الإيراني، وأسير نخبة سياسية استحوذ عليها جنون القوة والهوس الطائفي.

الذي لا شك فيه أن أحداً لم يتخيل أن يصل الأمر بتنظيم الدولة حد التمدد على النحو الراهن، وهذه المفاجأة هي التي تقف الآن خلف الارتباك في إدارة المعركة على نحو أظهرها بصورة حرب عالمية رغم أنها ضد تنظيم لم يكن ينتبه إليه أحد خارج السياق السوري والعراقي، مع قناعة لدى البعض بأنه بالإمكان التحكم بالأمر في حال توفرت الرغبة في ذلك.

والنتيجة أن مشهد الفوضى الراهن لا يحركه أحد بمفرده، بل هو نتاج تدافع بين القوى في المنطقة، وهو يفضي إلى تحالف الأضداد أحياناً، كما أن أحداً لا يمكنه التكهن بمآلاته، ولا بصيرورة أحداثه وكذلك بالنسبة للمدى الزمني الذي سيستغرقه.

ولا يتوقف الأمر عند مشهد المعركة مع تنظيم الدولة، بل يشمل كذلك مسيرة ربيع العرب، ومصير المشروع الإيراني في المنطقة، خاصة بعد ضربته الجديدة في اليمن، والتي ستفتح باب استنزاف جديد على إيران من حيث أرادته أداة استنزاف لآخرين يمكنها مساومتهم من خلاله على مصير بشار الذي يُعد الركن الأهم من بين أركان مشروع التمدد الإيراني.

سنوات لا يُعرف مداها، عنوانها الفوضى، ولكنها ليست الفوضى الخلاقة التي يتحدث عنها أولئك، بل هي الفوضى التي ينتجها المخاض التاريخي في منطقة بالغة الحساسية للعالم أجمع، وحيث انتفضت أمة، ليس من أجل حريتها في الداخل، بل من أجل التحرر من التبعية للخارج أيضاً، الاستعماري الغربي، والإيراني المُصاب بغرور القوة في آن.

المصادر: